٦ ـ فى بـــلاد الأحرار

للكاتب التركى الأستاذ آغا أغلو أحمد

للأستاذ أحمد مصطفى الخطيب

اجتماع — أقوال الخطباء

يالها من بلاد عجيبة ؟ ما أصعب نيل الحرية ؟ . . ليت شعرى هل أستطيع إلفة هذه الحياة ؟ . . لقد خيل لى الأمر فى البداية سهلا ميسورا . . ولكن هاهى ذى المصاعب تتوالى وتتفاقم فى النهاية . .

إن هناك رواسب فى قرارات النفوس تركتها عهود التاريخ الماضية من ورائها ، هى التى تستعبد الإنسان وتقيده أكثر من غيرها . .

وها إن الحال تتطلب الآن التخلص من نيرها وسلطانها دفعة واحدة . . . عليك أن لا تكذب ، أن لا تداهن ، أن تتحلى بالشجاعة ، أن تدافع عن الحق ، أن لا تعرف معنى التردد ، أن تقول الحق !

يالها من شروط صعبة ثقيلة ؟

كيف لا يخشى جانب الرجل ذو البأس والقوة ؟ أو لا يجهر له بالصدق ؟ أو لا يتحاشى التزلف إليه ؟

إن المرء لتضطرب أحشاؤه وترتعد فرائصه عند رؤيته أحد هؤلاء الطغاة العتاة ... ورأسه يدور ، ورقبته تنحنى ولسانه يباشر الحمد والثناء بغير إرادة منه !

ولا يمكن أن أنسى قط ما كان يحدث لصديق لى كلما أراد محادثة أحد الوزراء فى التليفون فقد كان يشحب لونه ، ويتلعثم لسانه ويأتى بحركات آلية مضحكة كما لو كان أمام الوزير نفسه بالذات لا أمام آلة صماء ... وقد شاهدته ذات مرة وهو يردد هذه العبارات فى ارتباك ظاهر وذعر شديد :

« ... نعم يا مولاى ... بفضل عطفكم السامى ... هفوة الصغير عفو الكبير ... »

ثم ألقى بالسماعة على الأرض بعنف وترامى على أحد المقاعد لاهثا وهو يقول :

— « آه ! ... كاد أن يقضى على ... لماذا كل هذا السخط والهياج ؟ .. كل ما فى الأمر أننى رفعت نهار أمس تقريرا إلى معاليه ذكرت فيه نبذة قصيرة عن سوء سلوك نجله فى الدائرة وفساد أخلاقه ... يا ويلى منه ومن ثورته وغضبه ... ولكننى لحسن الحظ استطعت تهدئة الحالة ... آه ... »

ومع أننا كنا نسخر آنذاك من هذا الصديق المتخاذل الرعديد ونهزأ به إلا أننا فى الحق لم نكن لنختلف عنه من هذه الناحية إطلاقا

والآن كيف نستطيع استئصال شأفة هذه العلل التى نفذت إلى عظامنا وجرت مجرى الدم فى عروقنا ؟

لم يغمض لى جفن فى تلك الليلة من فرط تأثرى .. بل ظللت أدور فى غرفتى طول الليل ... وإذ طلعت تباشير الصبح ، سقطت على الأرض لجثة هامدة من شدة الإعياء

وحين فتحت عينى كانت الشمس فى متوع النهار ، وكان رأسى مثقلا بالصداع .. فأحسست بحاجة شديدة إلى استنشاق الهواء النقى

ألقيت بنفسى إلى الشارع .. وقصدت إلى حديقة تجاور البيت الذى أقطنه ... كان البستانيون هنا منهمكين فى رى الحديقة .. وكان ثمة على بعد قليل ينهض تمثال شامخ

اقتربت من التمثال وقرأت على أحد جوانب قاعدته هذه الكتابة :

« بطل بلاد الأحرار الأول »

ملت إلى أحد البستانيين وسألته عن اسم الحديقة وعن هوية البطل

— هل أنت غريب عن هذه البلاد ؟

— نعم ! .. جئت حديثا !

— يطلق على هذا المكان حديقة الحرية ... وذلك التمثال يمثل أول وطنى رفع لواء الحرية ضد الاستبداد .. فبلادنا تعبده وتقدسه

* * *

وفى هذه الأثناء كان الناس قد أخذوا يتوافدون على المكان زمرا زمرا ... ولم تمر سوى هنيهة حتى عقدت اجتماعات عديدة أيضا فى مختلف أنحاء الحديقة

اقتربت من أحد هذه الاجتماعات .. فرأيت فتى يافعا يلقى خطابا حماسيا مؤثرا ... أصغيت إليه فاذا هو ينتقد الحكومة ، ويحمل عليها حملة شعواء لأنها تقاعست عن تنفيذ برنامجها بحذافيره ، وتركت عددا من الوطنيين فى الشوارع لا يجدون لأنفسهم عملا .. ولأن الإحصاءات الأخيرة دلت على وجود اثنين فى كل مائة أميين بين سكان المملكة ، وذلك يعد عارا كبيرا وصمة لا تمحى من جبين البلاد الحرة

اقتربت من جماعة ثانية ... فشاهدت رجلا فى منتصف العمر ، ضعيف البنية ، يتبسط فى شرح النقائص التى يلاحظها على الجيل الجديد ، ويؤاخذهم بشدة على انغماسهم فى المادية ، وانصرافهم عن المثل العليا ، وإغفالهم أمر الصلات الإنسانية والوطنية الرفيعة ، ويرى أن هذه حالة ستؤدى بهم لا محالة إلى أن تكون آثارهم هزيلة عديمة الحياة ، ورؤوسهم فارغة جوفاء ، وسجاياهم منحلة سائرة نحو التلاشى والاضمحلال

وإذ كان الخطيب يبدى مخاوفه الشديدة من مغبة الأمر ، كان لا يجد دواء لمداواة الوضع سوى المبادرة إلى إحداث تغيير شامل سريع فى نظم التعليم وأهدافه وخططه التى تسير عليها الدولة فى تنشئة الشبان وإعداد الجيل المقبل

أما فى الزمرة الثالثة فكان الخطيب سيدة بارعة الجمال تتحدث عن حقوق المرأة السياسية

وفهمت من أقوال السيدة الخطيبة أن النساء فى بلاد الأحرار يملكن نفس الحقوق التى يتمتع بها الرجال ، ولا يضن عليهن بسوى منصب رئاسة البلاد فقط

وقد كانت الخطيبة تشير إلى هذه الناحية فى انتقاداتها وتقول :

— « كيف يسوغ أن يضن بهذا المنصب على المرأة ، ثم لا يضن به على الابن الذى تلده ؟

إنهم يحدثوننا عن الخواص الفيزيولوجية .. وكأن الرجال جميعا فى منجاة عن النقائص الفيزيولوجية

اذهبوا إلى البيمارستانات ، إلى السجون ... ادرسوا إحصاءات الجرائم ، فلا أظن النتيجة ستكون بجانب الرجال

إن هذه المخاوف ليست سوى أعذار تافهة ، لا تخرج عن كونها بقايا أسلحة فاسدة استعملها الرجل منذ قديم الزمان لضمان استمرار سيطرته على النساء وبقاء استبداده بشؤونهن .. ولكن المرأة سوف تقضى على هذه البقية الباقية أيضا كما قضت من قبل على القيود الأصيلة نفسها وحطمتها إلى الأبد ، وذلك بفضل كفاحها المستمر ونضالها الدائم ، وجهادها الذى لا يفتر ولا ينى

أجل سوف يعلم الرجال أن هذا الملجأ الأخير الذى يأوون إليه ، يجب أن تفتح أبوابه على مصاريعها أمام النساء نزولا عندما يقضى به الشرف والكرامة ... وأن وجود أقل تفاوت فى الحقوق بين الأفراد فى بلاد الأحرار ليس إلا وصمة عار فى جبين الحرية نفسها . وسوف تمحو المرأة هذه الشائبة مهما طالت بها الأيام أو بعدت أمامها الشقة ... »

* * *

كانت هنالك جماعات أخرى أيضا .. غير أننى كنت قد أحسست بالتعب ... فجلست فوق أحد الكراسى ، وشرعت أفكر فى جميع هذه المشاهد التى مرت أمامى ولم أكن قد رأيتها أو سمعت بها من قبل

وكان من أشد ما أثار عجبى أسلوب الخطباء ولهجتهم فى أثناء الكلام .. فقد كانوا يحصرون انتقاداتهم فى دائرة الوقائع والحوادث ، ويعنون عناية كبيرة بأن لا يظهر على حديثهم أى أثر للتذبذب أو الشكوك أو التردد ، مسبغين عليه ثوبا من عفة اللسان والوقار ، متنكبين عن استعمال أية كلمة نابية فيها حرج لعاطفة الشخص الذى يتصدون لانتقاده أو مس لكرامة من يشنون الحملات عليه ...

وقد تراءى لى فى الوقت نفسه من المعانى المتجلية فى عيون المستمعين ، وإمارات الجد اللائحة على وجوههم ، أنهم يستسيغون هذا النوع من النقد ويرتاحون له ويؤثرونه على سواه ، ويجدونه أضمن للفائدة وأبقى

وقد ذكرنى — بغير إرادة منى — ما شاهدته هنا من الصور الجديدة ، ما فى بلادى من أساليب النقد وفنون النقاش بالهول الإسفاف الشنيع والتهور الجامح ! .. وبالهول السباب

والشتائم المقذعة ! .. أقوال مضطربة لا رابط بينها ، إشارات غامضة ، إيماءات منلقة مستهجنة .. ولطالما حدث أن السامعين والقارئين سدوا آذانهم ، وأغمضوا عيونهم تقززاً واستنكارا ، ثم هبوا جميعاً يطالبون بوضع حد لمثل هذا الجو الوبوء الخانق ، فظهرت قوة طاغية كمت أفواه المتكلمين وعصبت عيون الشاخصين معاً بشكل محكم ، حتى عاد الناس فى هذه المرة يشعرون بالاختناق من الصمت والظلام

آه ! ما أعظم كارثة الإفراط والتفريط ! لقد اقتنعت الآن أن الحرية لا يمكن أن تنال بمجرد الرغبة فيها ، أو المطالبة بتحقيقها ... إن على الإنسان أن يربى شخصيته ، ويخلق من نفسه سيداً قبل كل شيء ...

— أجل ! أجل ! على الإنسان أن يكون سيداً !

— إلى من تتحدث ياعزيزى ؟

استدرت قليلا . . فوجدت أحد الضيوف الإخوان جالسا إلى جانبي ، يرمقنى بنظرات التعجب والحنان وأنا أحادث طيف الماثل أمامى . .

فقلت معتذراً :

— كنت غارقاً فى التفكير وأنا أقارن بين ما شاهدته اليوم وما وقع لى بالأمس فبدرت تلك الكلمات منى دون وعى . .

فابتسم ابتسامة رقيقة ثم قال :

— لا تحزن ! هذه مرحلة قد تخطاها كل واحد منا . .

— إذن أنتم هنا منذ وقت طويل . .

— أجل !

— أرجو أن تخبرونى : هل تقصد هذه الاجتماعات هنا كل يوم ؟

— كل يوم على وجه التقريب . . وتلك الساحة أشبه بمدرسة شعبية عامة يستطيع أى مواطن أن يطلع فيها على كل مايعنيه أمره من شؤون بلاده :

— يالها من عادة حسنة !

* * *

حضر الأساتذه فى اليوم التالى ثانية فقلت مخاطباً أحدهم :

— تنص المادة العاشرة على أن التساند دين واجب الأداء ، فما معنى ذلك ؟

— أجل ! إن وجود التساند والمؤازرة شرط أساسى فى بلاد الأحرار ... انظر إلى الأقطار غير الحرة تجد فيها الأفراد والأسر كلا مستقلا بنفسه عن غيره ، وليس بين ظهرانيهم من الصلات والروابط إلا النزر القليل . . ذلك لأن سيف الاستبداد المصلت على رؤوس هؤلاء لا يفسح فى المجال لهم بالتآزر والتآلف وتكوين جبهة واحدة وكيان واحد . .

فالشرط الأساسى فى هذه الممالك التفرق والتخاذل ووقوف « المواطن » موقف الأجنبى من أخيه المواطن وعدم اهتمام بعضهم ببعض ...

وكما أنه من الميسور جدا سحق أفراد مجتمع كهذا وإفناؤه ، كذلك من السهولة بمكان ... أن يلعب المرء كما يشاء بهذا المجتمع نفسه كما لو كان خرقة بالية عديمة الدم والحياة ...

أما فى بلاد الأحرار ، فالشرط الأول هو الاتحاد والإيثار والإلفة التامة بين الأفراد والاهتمام بما يحدث ويقع للمواطنين ... والكل هنا كحلقات الشبكة تتأثر من العطب الذى يصيب أى واحدة منها ...

وشؤون المجتمع ذاته لا تعتدل ولا تستقيم إلا إذا نجا أفراده جميعاً مما حاق بهم من الأخطار وأصابهم من الألم والاضطراب

هنا يتحتم على كل فرد أن يكفل بصيانة حقوق غيره وشرفه وكرامته . . وليس فى معجم البلاد أقوال من قبيل : « إذا مت ظمآنا فلا نزل القطر » « عش لنفسك » « هل أنا الذى أستطيع إصلاح العالم ؟ »

— آه أيها الأستاذ ! إنى مصغ إليكم بكل كيانى وبكل لذة وشغف . . ولكن وا أسفاه . . إن جميع العادات التى ألفتها والتقاليد التى جريت عليها لهى على طرفى نقيض مما تفضلتم على بشرحه وإيضاحه ... ليت شعرى كيف أستطيع أن أغير مابنفسى ... إلهى ! ما أصعب أن يكون الإنسان حرا ...

— نعم يابنى ؟ ليست الحرية سهلة سائغة ... والعبودية أسهل منها ... فبينما العبد يسلم زمامه إلى غيره ليقوده كما يريد ويهوى نجد الحر مكلفا بالتفكير فى غيره ...

إن كل مواطن هنا مكلف بحب الغير ، ومعنى حب الغير